

المحاضرة الثانية: الرواية الجزائرية : التأسيس

توطئة:

عرف نوع الرواية في مراحل ظهوره مجموعة من الإشكالات الكبرى سواء ما تعلق منها بالهوية خاصة وأن النقاد وقفوا مطولا حول هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ونظيره المكتوب باللغة العربية وهذا ما خلق جدلا واضحا على مستوى الدراسة فعلق بعناصر ثلاث هي: الهوية ، المضمون ، ولغة هذه النصوص نفسها ، وهو ما اقتضى حديثا مطولا حول "أسئلة الهوية والمقومات الشخصية" ، والتي تأثرت من حيث التعرف على مختلف أنواع وأشكال الكتابة السردية برافدين مهمين هما:

يقال "كان حظ العرب من القصص والشعر القصصي قليلا بيد أنّ هذا الفن اقتبس عن الأجانب فهم الذين جعلوا شأنًا عظيمًا للقصة ، اقتبسها عنهم العرب بقواعدها ومناهجها ، وحتى موضوعاتها" ، حيث يؤكد الكثير من النقاد على مدى تأثير اتصال الكتاب العرب بالغرب على تعرفهم على الكثير من الأنواع والأشكال الأدبية ، وفي مقدمتها الرواية ، حيث "ترجمت أعمال مبدعين كبار ، وكان التأثير واضحًا في مختلف الأصعدة. فكانت الرواية كنمط جديد للكتابة عند العرب مدخلا من مداخل العرب إلى الثقافة العربية ، فقد كان للمثاقفة حتى سنوات الاحتلال الفرنسي للجزائر أيضا دورا مهما في اطلاع الروائيين على هذا النوع من الكتابة ، حيث خاضوا الكتابة فيه بلغة المستعمر ، وفي مقابل ذلك تأخر تعرفهم عليه بسبب الظروف التي عاشتها الجزائر إبان هذه الفترة بالذات -الاحتلال الفرنسي- ، وفي مقابل هذا الرأي يوجد فريق آخر يرفض التسليم بهذا الأمر "بحجة أنه ليس من المعقول أن يصل لون من ألوان الأدب لدى أمة إلى ما وصل إليه فن الرواية العربية الحديثة من تقدم في مثل هذا الوقت القصير ما لم يكن له جذور يعتمد عليها ،...فنشأة الرواية العربية الحديثة وثيقة الصلة بالتراث العربي كما تمثله السيرة الشعبية كسيرة عنترة بن شداد ، سيف بن ذي يزن ، والسيرة الهلالية ، وغيرها من السير التي تعد مرحلة من مراحل النمو الطبيعي لتطور الرواية العربية خلال تاريخها القديم".

الرافد المشرقي:

لقد كان لعامل الصحافة والترجمة دورا مهما في ظهور وانتشار الرواية ، خاصة مع جهود العديد من المؤلفين وأبرزهم سليم البستاني الذي نشر الكثير من الروايات منذ سنة 1970 في مجلة الجنان ، حيث ألف العديد منها "الهيام في جنان الشام ، زنوبيا ملكة تدمر ، بذور..." ، كما ظهرت عدد من المجلات الأخرى التي فتحت لغيره من الكتاب والروائيين مجالا أرحب للكتابة في هذا الفن ، كما انتشرت الرواية أيضا بفضل ترجمة العديد من الروايات الغربية ، كما نجد الرواية تحتفي بالتاريخ العربي الإسلامي بشكل ملفت للنظر ، بظهور ما يعرف بالرواية التاريخية عند جورجى زيدان من خلال ما عرف بسلسلة روايات تاريخ الإسلام ، من مثل " صلاح الدين الأيوبي " ، و "عذراء قریش" ، و"شجرة الدر" ، و"فتاة القيروان". غير أننا نقف- على الغرار من البلدان العربية- عند أسباب مهمة جعلت الروائيون الجزائريين لا يواكبون الأشكال التي عرفتھا الكثير من الآداب العربية بسبب " الوضع الثقافي الذي جسدتھ الظروف القاسية التي كانت تحيط بالجزائر في فترة الاحتلال منعھا من أيّ احتكاك بالجانب الثقافي نتج عنه تأخر في الفنون الأدبية قياسا بالبلدان العربية الأخرى "

أولاً: النصوص التأسيسية للرواية الجزائرية العربية:

1- النص الروائي المكتوب باللغة الفرنسية وحقيقة التأسيس للفن الروائي في الجزائر

بدأ الروائيون الجزائريون التأليف في الفن الروائي باللغة الفرنسية ، غير أنهم وجدوا صعوبة في نشر أعمالهم ، حيث تؤكد الناقدة (عايدة أديب بامية) على أن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والتي لم يكن من السهل إقدام أصحابها على إيجاد أرضية خصبة أو سهلة لنشرها ، فقد "كان الناشرون في فرنسا فقط ولم يكن بينهم القليل من القديسين والأبطال حتى يجازفوا بنشر إنتاج كاتب عربي" ، فقد كان أصحاب الأعمال الروائية ينتظرون سنوات متلاحقة حتى يتمكنوا من نشرها فقد استغرقت رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب ست سنوات كاملة حتى استطاع نشرها سنة 1952م ، فقد توجه أغلبية الكتاب إلى الكتابة باللغة الفرنسية للتعبير عن أوضاعهم المزرية ، كما كتبوا عن واقعهم وظروفهم الاجتماعية المتدهورة ، حيث ظهرت هذه الفئة "فكتبوا بلغة المستعمر فكانت بمثابة سلاح يساعدكم على التعبير عن أهدافهم وقيمهم وعن التقاليد الجزائرية" ، وقد كانت اللغة هي أهم مقوم بعد الدين الإسلامي الذي لعبت عليه الكثير من الحركات الاستعمارية بما فيهم السلطات الفرنسية إبان احتلالهم للجزائر "فكان همهم الأساسي هو تحطيم القلعة الأولى في كيان الأمة الجزائرية ألا وهي قلعة اللغة العربية ، وقد كان هدف المستعمرين إضعاف الوحدة الفكرية بين أبناء الوطن الواحد وبالتالي تضعف الشعور بالانتماء إلى الوطن العربي الكبير" .

كما عانت الرواية الجزائرية من مشكل المقروئية في ظل بروز هؤلاء الكتاب الذين لم يكونوا معروفين في ذلك الوقت وقد أعرب محمد معمري عن هذا الميثبط الذي واجههم في بداية إنتاجهم فهو يتساءل".من سيقراً كتب الأدباء العرب التي يتحدثون فيها عن أنفسهم؟..."، وهنا إحالة إلى "أدب جزائريين مؤمنين بوطنهم متذمرين من غربتهم عن لغتهم العربية بل وحتى لهجتهم البربرية، وليس تعبيرهم بالفرنسية بطوعية بل هي نتيجة حتمية لواقع لم يكن لهم فيه يد".

كما كان لاندلاع الحرب العالمية الثانية دوراً مهماً في ميلاد الرواية الجزائرية-المكتوبة باللغة الفرنسية- بحسب ما ورد في كتاب "تطور الأدب القصصي الجزائري" التي تستند فيه الباحثة إلى رأي(ميشال بارفونوف)، إذ تم التأكيد على أن الجزائريين في ظل مشاركتهم في هذه الحرب لم يعاملوا ولم تكن لهم نفس الحقوق مع الجنود الفرنسيين مع أنهم كانوا متساوون في الواجبات وهذا ما دفع بهم إلى رفض هذا الواقع وعدم الرضوخ لهذا المنطق فلجأوا إلى المقاومة المسلحة والكتابة، وتؤكد(عايدة أديب بامية) أن "الرواية المكتوبة بالفرنسية نادرة قبل الحرب العالمية الثانية، بينما الرواية العربية كانت معدومة الوجود...».

كما تعتبر "العوامل الثقافية والفنية...المسؤول الأول عن ندرة الرواية المكتوبة باللغة العربية ، وأن ظهور رواية واحدة فقط باللغة العربية فيما بعد الاستقلال وحتى عام 1967 لا يترك المجال للأعذار بل يضع المسؤولية على الأدباء الجزائريين" ، فالوضع الثقافي السائد في فترة ما قبل الاستقلال كان أحد أسباب قلة ظهور الروايات ، كما ترجع المسؤولية أيضا للأدباء الذين لم يثوروا على هذا الوضع ولم يسعوا جاهدين إلى إيصالها إلى أيدي القارئ سواء داخل الوطن أو خارجه. تعود أول ملامح كتابة الرواية في الأدب المكتوب باللغة الفرنسية إلى 1947 بالرواية الأولى التي نشرتها (مارجيت طاووس عمروش) المعنونة بـ "الزُبقة السوداء" (Jacinthe Noire) والتي تتحدد فيها خصوصية الكتابة في هذا النوع الأدبي الذي يقوم على الأخذ من الحياة الشخصية "تحكي فيه الكاتبة تجربتها في مسكن الطالبات بباريس وتشير إلى بعض أوجه الحياة القبائلية" غير أن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والتي راعت المعايير الفنية في كتابتها وتمثلها رواية "نجل الفقير" لـ (مولود فرعون) هذه الرواية التي عالج فيها الروائي "الفقر في منطقة القبائل أثناء فترة الاحتلال ، وذلك من خلال أسرة قبائلية عرفها هذا الروائي جيدا ، باعتبارها أسرته هو ، وتعتبر رواية ابن الفقير...إلى حد بعيد سيرة ذاتية تصف طفولة الكاتب ومراهقته ، كما تغطي الرواية السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، لتصل حتى نهاية العشرينات».

وتبقى إشكالية ظهور الرواية الجزائرية والأعمال المؤسسة لها محلّ خلاف وجدل كبير لم يتفق عليها النقاد والباحثون في هذا المجال.

2- نشأت الرواية الجزائرية العربية في فترة ما قبل الاستقلال

تؤكد الكثير من مصادر الأدب الجزائري على أنه عرف تأخرا واضحا في ظهور الرواية المكتوبة باللغة العربية وهذا بسبب "سيطرة نظريتها الفرنسية التي تعود الناس على قراءتها، كما أنّ الوضع والظروف السائدة إبان الحقبة الاستعمارية كانت متردية حيث كان هذا الأخير يحاول طمس الهوية العربية ومقوماتها"، يشير الكثير من النقاد إلى الصلة الوثيقة بين ظهور هذا النوع الأدبي في المشرق العربي والعلاقة الناجمة عن نتائج تفتح الجزائر على النهضة العربية الحديثة بحسب الرأي الذي يتبناه(عبد الله الركبي)، في حين يقرّ البعض الآخر- من المنظرين-على حقيقة أخرى وهي ظهور أول رواية إنسانية في الجزائر؟، ومن هذا التصور يصل الباحث إلى أنّ الرواية الجزائرية عرفت ما أطلق عليه الناقد(واسيني الأعرج) بـ "محنة التأسيس" التي وقفت تحديدا عند وجود عمليّن بارزين اعتبرهما النقاد نصين تأسيسيين للرواية الجزائرية وهما:

1-2 رواية(الحمار الذهبي) لصاحبها(لوكيوس أبوليوس) و"هو أحد أبناء شمال إفريقيا..الذين برزوا في ميدان الأدب اللاتيني"، والذي كان له باع طويل في تأليف الرواية، كما كان له تأثير على كتّاب أتوا من بعده خاصة(القديس أغوستينوس) من خلال وضع كتابه(عن مدينة الله)"، ويعتبر هذا العمل-رواية" الحمار الذهبي"- بحسب تصوّر(أبو العيد دودو)" أول رواية قديمة وصلت إلينا كاملة، وشكلت نوعا أدبيا جديدا

هو النوع الذي يعرف اليوم بالرواية الإطارية ، التي تضم مجموعة من القصص من جهة ، وبالرواية الأنوية أو الرواية التي يرويها المؤلف نفسه بضمير المتكلم من جهة أخرى" ، كما اعتبر هذا النص الأسبق في الظهور من أول نص للرواية العربية بالعمل الذي كتبه (محمد حسين هيكل) المعنون بـ " زينب " التي صدرت سنة 1914م.

2-2 حكاية العشاق في الحب والاشتياق: أمّا العمل الثاني الذي جعل له السبق في التأسيس للرواية الجزائرية قبل الاستقلال هو لـ (محمد بن ابراهيم) الذي كتب ما بين 1845-1849 — كما يبقى الجدل واضحاً بين اعتبار هذا النص رواية أم قصة وأغلبية الآراء ترجح البعد الأجناسي الثاني- حيث يشار في هذا الصدد أنّه "...أول عمل قصص بالمعنى الفني ويعدونه ظاهرة مبكرة ، وقد كتبت القصة سنة 1849".

ومن خلال ما سبق ذكره يتأكد أنّ هذه الآراء وغيرها تحاول التأسيس للرواية الجزائرية إلى فترة ما قبل الاستقلال بوجود اختلاف واضح أيضاً في مسألة النص التأسيسي ، إذ يتبنى النقاد فكرة أن أول نص روائي مكتوب باللغة العربية يمثل نص غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو الذي ظهر سنة 1947 ، فقد كان الروائي من "الذين اجتهدوا في الخروج عن الإطار الضيق الذي رسمه لهم الكتاب المصلحون السابقون ، والذي يتلخص في ضرورة الاحترام والالتزام بديوان العرب في مجالات الإبداع يكفي رضا حوحو فخراً ، أنه كان أول أديب يكتب باللغة العربية ، ليطرق أبواب العالم الروائي في ظل بورجوازية فرنسية قميشة ، عملت كل ما بوسعها ، لإعاقة تطور الإبداع كغيره من مجالات الفكر والفن الأخرى عن طريق محاربة مضامينه ، واللغة التي صيغ بها".

كما يرى الروائي واسيني الأعرج "أنها كانت تتحقق فيها خصائص الرواية الفنية لو ترك الكاتب الحرية لعناصرها كي تتفق وتنساب بطلاقة لتحقيق نموها السردى المطلوب الذي ظل ملجوما ومشدودا بالحدز" ، بعد هذا العمل تظهر رواية "الطالب المنكوب" ل(عبد المجيد الشافعي الذي نشرت حوالي عام 1951 في تونس ، وقد علق الناقد واسيني الأعرج على صاحب هذه الرواية ، بأنه لم تكن له "القدرة الكافية لسبك الأحداث ، وتركها تسير بعفوية ، ليجد نفسه في النهاية في تيه الوصف والإرشاد ، والوعظ ،... والتبرير الشكلي الوحيد.... هو أنّ الفن الروائي في الوطن العربي قاطبة ، ما يزال فنا مستحدثا ، ولا يزال هذا الفن يخوض معركة تأسيس نفسه ، فالتأسيس نفسه يكون بهذا المعنى مغامرة تشكيلية تحتمل كل المفارقات". ليعقب النصين السابقين في الظهور ، نص ثالث هو "الحريق" ل (نور الدين بوجدرة) الذي نشر سنة 1957م ، حيث تدور وقائع هذا العمل على الحدود مع الشقيقة تونس زمن الثورة المسلحة.

3- نشأت الرواية الجزائرية العربية في فترة ما بعد الاستقلال

انشغل الجزائريون في مرحلة ما بعد الاستقلال مباشرة ، بإعادة البناء والتشييد والتي مثلت في حقيقة الأمر مرحلة مهمة في إعادة لملمة شتات الأمة على جميع الأصعدة خاصة من الناحية الاقتصادية لذلك لم نقف عند وجود أعمال روائية كثيرة باستثناء رواية "صوت الغرام" لمحمد منيع الذي ظهرت سنة 1967 ، وكان موضوع أحداثها يدور حول الريف الجزائري ، وكانت تقترب من طبيعة مواضيع كتابات الرواية العربية حيث كان رومنسيا يروي قصة حب نشأت بين بطليها (العمرى وفلة) ، حيث لم تحقق هذه الرواية حسب رأي النقاد والدارسين نفس المستوى الفني الذي كتبت به سابقتها ، ويعود السبب إلى "الظرف التاريخي بكلّ مفارقاته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية زيادة على أن ثقافة الأديب نفسه لم تكن لتساعده ولا لتسهم في ظهور الرواية ولكنها خلقت التجربة الأولى التي ستبنى عليها أعمال أدبية فيما بعد خصوصا مع التحولات الديمقراطية في بداية السبعينات".

وقد احتار العديد من النقاد حول أسباب هذا التأخر في كتابة النص الروائي الجزائري العربي ، وفي مقدمتهم "عبد المالك مرتاض الذي يتساءل عن الأمر في قوله "إنّنا لا ندري ما منع الكتاب الجزائريين خلال فترة(1931 ، 1954) من معالجة الأدب الروائي ، أيعود ذلك إلى نضوب في الخيال ؟ أم عدم وجود كفاءات أدبية متمكّنة ؟ أم إلى ذلكم جميعا؟" ، لذلك ظهر أول نص روائي جزائري مكتمل فنيا ومكتوب باللغة العربية سنة 1971 ، من خلال ما كتبه عبد الحميد بن هدوقة ، في نصه الموسوم بـ " ريح الجنوب""ذلك الإنجاز الفني الذي أضاف إلى قائمة النتاج الجزائري الفكري وإلى الواقعية الانتقادية عملا جادا بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى ، ويكفي أنها كانت نبوءة صادقة مثلما كانت ثلاثية محمد ديب ، ففي الوقت الذي تنبّأت فيه الأولى بالثورة الزراعية تنبّأت الثانية بالثورة التحريرية الكبرى" ، وهي الرواية التي قال عنها الطيب ولد لعروسي "إنها اجتماعية ، وواقعية صافية وفيها شيء من الرومانسية والوجودية ، وإنّها لا تخلو من الشاعرية والرمزية ، وهناك من جعل الرّوائي واقعيًا نقديا ، يتّسم بوضوح الرؤية تارة وقصورها تارة أخرى" ،